في ظلال السيرة

ستظل السيرة النبوية ـ دائمًا ـ مصدرًا غنيًّا للمعرفة الإسلامية ، يستجلي فيه الباحثون مسيرة الإسلام في عهد النبوة ، ويتعرفون على معالم شخصية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ويقفون على سلوك أصحابه ، ﷺ ، في التعلُّم منه ، وطاعته ، والثقة بما يقول ويفعل ، وفي مناقشتهم إياه ومراجعتهم له ، إذا رأوا فيما يأمرهم به أو ينهاهم عنه محلاً للمراجعة أو المناقشة . ويرون كيف يكون استمساك النبي ، صلوات الله وسلامه عليه ، بما أُوحي إليه ، فلا يتقدم عنه ولا يتأخر ، ولا يأبه لقول أحد ـ كائنًا من كان ـ وإنما يدلُّ أصحابه ، برفق يليق به ، على أن الأمر مرجعه إلى الله وحده . وكيف كان يقبل النصيحة والمشورة من أصحابه عندما يكون الأمر رأيًا رآه هو ، أو رآه بعض أصحابه وقبله الرسول منه ، فإذا اقترح عليه ـ عندئذ ـ أن ثمة ما هو أرفق بالناس ، أو أدنى لتحقيق مصلحة المسلمين العامة فإنه يعدل عن الرأي الذي رآه ، أو قَبِلَهُ أولا ، ويأمرُ بخلافه ، لا يصده عن ذلك ما يصد بعض الناس ـ في عصرنا ـ ومنهم حكام كبار ، وذوو جاه وسلطان ، عن الحق والرجوع إليه خشية أن يقول الناس

إن أحدهم نزل على رأي أصحابه أو رجع عن قوله إلى قول هو أحسن منه أثرًا وأعدل نتيجة !

* * *

والذي يستعيد السيرة ، ويحيا في صحبة أحداثها ، يرى كيف تنزَّل القرآن مرتبطًا بالحياة الإسلامية الأولى ، وكيف كان تشريعه رفقًا بالناس ورفعًا للإصر والحرج عنهم ، وكيف كان الوحي يبشر المؤمنين فلا يقنطوا ، ويعدهم فيصدَّقُوا ، ويفضح المنافقين فينكشف أمرهم، ويثبت فؤاد رسول الله ومن معه فلا تذهب بأحد من أصحاب رسول الله ﷺ ، المخاوف ولا تتلاعب به الأهواء ، ولا يعرف الشيطان إلى قلوبهم سبيلاً: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ (الفرقان:٣٢) . والتثبيت هنا له ولمن تبعه من المؤمنين عند نزول الوحي ، ولمن آمن به واتبعه إلى يوم القيامة ، فإنك تقرأ الآية من التنزيل فتجد في نفسك لها من الأثر ما يخيل إليك معه أنها الآن أنزلت ، وفي شأنك الذي تعانيه نطقت ، ويردك لفظها إلى الله ردًّا جميلاً . وقد صدق عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما قال ، حين تلا أبو بكر رضي الله عنه ، قول الله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى

ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران:١٤٤) وقوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (الزمر:٣٠) قال عمر ـ وقد كان أنكر أن يقال إن رسول الله قد مات ـ «فوالله كأنها ما أنزلت إلا الساعة»! وليس فيمن يعيشون مع القرآن ، ويرجعون إليه كلما حزبهم أمر ، من لم يصادف مثل هذه الحال العُمَرِية ![1]

* * *

والكتب المصنفة في السيرة النبوية لا تكاد تدخل تحت حصر [2] والمكتبة الإسلامية ، بل المكتبة البشرية في اللغات كافة ، تستقبل كل يوم جديدًا من المكتوب عن السيرة من جوانبها كافة ، فإن الكتَّاب والقرَّاء ـ أيضًا ـ كلٌّ ميسرٌ لما خُلِقَ له !

وقد عشت السيرة النبوية قارئًا ومتأملاً مرات كثيرة ، فقرأت في صغري على أبي رحمه الله كتاب «سيرة ابن

---

(١) صحيح مسلم الحديث ٤٤٥٢و٤٤٥٣ ؛ وسبل الهدىٰ والرشاد ، جـ ١٣ ، القاهرة ٢٠٠٦ ص ٤٨٦ .

(٢) انظر معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ ، لصلاح الدين المنجِّد ، ط دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٨٢، لترى مبلغ الكثرة التي وقف عليها من المؤلفات، وهي كلها غيض من فيض وقطرة من بحر .

هشام» مع شرحه «الروض الأُنف في شرح حديث السيرة النبوية لابن هشام» وهو من تأليف عبد الرحمن السهيلي ، ولا تزال في مكتبتي طبعته العتيقة التي قرأته منها ، أعود إليها أحيانًا فأجد ريح أيام الطفولة بحلاوتها وبراءتها والظمأ الذي لا يُروى إلى المعرفة .

ثم عشت مرارًا مع السيرة النبوية ، بطرق مختلفة ، في دروس شيوخي : العلامة الشيخ محمد الصادق عرجون شيخ علماء الإسكندرية ، والعالم الجليل الأستاذ المربي الشيخ منصور النمر ، والداعية الثابت الصابر الشجاع ، أحد أذكياء الدنيا ، الواعظ المدقق الشيخ إسماعيل حمدي ، والمعلِّم القدوة ، والداعية المعذَّب المحتسب ، الأستاذ موسى ابن عمران ، والعلامة الشيخ عبد الفتاح عفيفي ، والعالم السلفي الجليل ، التاجر الصدوق ، الشيخ محمد متولي عركز من جماعة أنصار السنة المحمدية بالإسكندرية، رحمهم الله جميعًا.

كان لكل منهم طريقته في التعبير عن حبه لرسول الله ﷺ ، واختياراته من روايات السيرة ، ومواطن اهتمام يركز عليها وموضوعات أو أحداث لا يحفل بها. وعن كلِّهم أخذت ،

ومنهم جميعاً تعلمت ، فجزاهم الله عني ، وعن سائر من انتفع بعلمهم وعملهم ، خير ما جزى عالمًا عن علمه وعمله .

وقرأت بعد ذلك وحدي ما استطاعت يدي أن تصل إليه من كتب السيرة : مصادرها الأصلية القديمة ، وكتابات المحدثين والمعاصرين من الهواة ومن المتخصصين جميعًا. وقرأت أهم ما كتبه بالإنجليزية غير المسلمين من المستشرقين ومن المؤرخين ، المنصفين الموضوعيين والمتحاملين الشانئين على السواء .

ثم اقتضاني الحرص على أن تتصل الأسباب بين أولادي وبين سيرة الرسول ﷺ أن أقرأ لهم السيرة مرتين : أولاهما كانت في أثناء إقامتنا في الرياض ، عاصمة المملكة العربية السعودية ، وكانت القراءة لابنتيَّ الكبريين فاطمة وسلوى ، ومعهما ابنة أخي العزيز الأستاذ محمد الفاتح مدني آمال وابنه حسن ، وهما من جيل ابنتيَّ الكبريين ، وأمهما هي الابنة الثانية لأستاذي ومعلمي المستشار حسن العشماوي رحمه الله [1] .

---

(١) تزوجت بعد وفاة أم أولادي ، الدكتورة أسمهان بكير ، ابنته الكبرى أماني، وكان أبو أولادها الأخ العزيز الدكتور كمال حلمي قد توفي من قبل ، رحمهما الله .

وكنت في هذه القراءة أعتمد ـ مع الروض الأنف ـ على السيرة كما رواها ابن سعد في أول الطبقات الكبرى ، وكما رواها ابن حزم في مختصر السيرة ، وكما كتبها شيخنا العلامة محمد الغزالي في فقه السيرة ، الذي خرَّج أحاديثه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ رحمهما الله ـ وعلى السيرة كما كتبها العلامة الأستاذ أبو الحسن الندوي ، وكما كتبها الشيخ محمد أبو زهرة وكنت أقرأ قراءة ناقدة ما كتبه الأستاذ محمد عزة دروزة عن السيرة النبوية مستخرجة من القرآن الكريم (!)

وكنت أعدُّ لكل يوم خميس ـ وهو اليوم الذي كنا نقرأ فيه ـ أوراقًا وملخصات وتعليقات أحاول بها أن أقرب المعاني إلى هذا الجمع من الصغار الأذكياء ، وأن أدخل بحقائق الحياة النبوية إلى قلوبهم وعقولهم معًا .

وأجمل ما أجد ذكريات تلك القراءة عندما يسألني أحد أولئك الأربعة عن أمرٍ ويقول لي : «لقد قلته لنا ، أو علقت عليه وأنت تقرأ لنا السيرة في الرياض»! لقد مضى على هذه القراءة ربع قرن أو يزيد ، وهي مع ذلك مؤثرة في أولئك الذين كانوا أطفالاً وأصبحوا اليوم آباء وأمهات. فلله الحمد والمنة !

والشيء الذي آسف له أن أوراقي وملخصاتي وتعليقاتي قد فقدت ، في تنَقُّلي بين البلاد ، فلم يبق عندي منها شيء. وقد أنفق الساعات الطوال ـ الآن ـ في تحقيق رواية سبق أن حققتها أو في محاولة العثور على قول نقلته بيدي من مصدره ورويته لأولئك الصغار . ويعزيني عندئذ أنني أعاني مما عانى منه كل من كتب عليه التنقل في بلاد الله وكتب له حب التعلُّم والحرص عليه !

* * *

القراءة الثانية كانت بين سنتي ١٤١٩ و١٤٢٠ الهجريتين ــ ١٩٩٨ و٢٠٠٠ الميلاديتين بدأت في شهر رجب ١٤١٩ ــ نوفمبر ١٩٩٨ وانتهت في شهر ذي القعدة ١٤٢٠ ـ فبراير ٢٠٠٠.

كانت في بيتنا في القاهرة ، وكان سببها أن الجيل الثاني من أولادي ـ أحمد ومريم وعبد الرحمن ـ لم يكونوا استمعوا إلى السيرة النبوية كاملة ، كما استمعت الابنتان الكبريان فاطمة وسلوى. وأن زوجتي أماني العشماوي وقفت في مكتبتي على نسخة من كتاب المقريزي « إمتاع الأسماع بما لرسول الله من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع» الذي حقق السِّفر الأول منه أستاذنا العلامة محمود شاكر ، رحمه

الله تعالى [1] ، ففرِحَتْ به فرحًا عظيمًا ورأت أنه خير ما نقرأ منه السيرة النبوية للأبناء والبنات . واتسع حضور هذه القراءة فكان يشاركنا فيها عدد من أصدقاء الأبناء وصديقات البنات منهم - مع حفظ ألقابهم التي اكتسبوها من بعد وألقابهن - سالي توفيق ومروة السيد والسيدة زهراء البدراوي والدكتور حسنين البرهمتوشي وأحمد البدراوي والشقيقان محمد وياسر عبد البديع والشقيقان محمد وأحمد عبد المنجي وأكرم الجلا وباسم حمدي وآمال مدني والسيدة فاتن القرماني وابنتاها نجوى وأمل العشماوي ومروة سلطان وحسن كمال ورباب سري ورشا هاني .

حضر بعضهم بعض مجالس قراءتنا ، وحضر بعضهم أكثرها ، وحضرها بعض منهم كاملة .

---

(١) صدرت له طبعة كاملة في ١٤ جزءًا عن دار الكتب العلمية بتحقيق محمد عبد الحميد النميسي، بيروت ١٩٩٩. وفي عنوانه اختلاف بين الطبعتين، بل في كل منهما. ففي طبعة شاكر، على الغلاف: (الأنباء والأموال) وفي صفحة (د) من مقدمة الشيخ عبد الله الأنصاري رحمه الله (الأقوال) بدل (الأموال). وفي طبعة بيروت جاء العنوان بلفظ (... بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع) وفي صفحة (٤) من مقدمة الدكتور محمد جميل غازي ذكر ألفاظ (الأبناء والأحوال...) ولم يذكر (الأموال) وقال العلامة الزركلي (الأعلام: ١/١٧٧). (... الأبناء..) والله أعلم بحقيقة الاسم الذي سماه به صاحبه!

وكثيراً ما شاركنا مجلسنا أخونا العلامة اللغوي المحقق، الطبيب ، الفقيه ، الكاتب ، الخطيب الأستاذ الدكتور محمد هيثم الخياط نائب المدير الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية ـ ثم كبير المستشارين فيها بعد تقاعده ـ وعضو المجامع اللغوية في سورية ومصر والأردن وغيرها وعضو مجلس أمناء الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين ، فكان ـ إذا حضر ـ جعلت القراءة له واستمعت مع المستمعين ، أو إن شئت الدقة ، استمتعت مع المستمتعين .

وقد كنت أستعين في تحضير هذه القراءة بكتاب « سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد » لمحمد بن يوسف الصالحي وبكتاب تهذيب السيرة النبوية لابن هشام الذي صنعه العلامة الأستاذ عبد السلام هارون رحمه الله، وبصحيحي البخاري ومسلم، وبكتاب « الشفا في أحوال المصطفى » للقاضي عياض ، وبكتاب « صفحات من سيرة المصطفى » لأستاذي الجليل المستشار عثمان حسين حفظه الله تعالى ، وبكتاب زاد المعاد للعلامة ابن قيم الجوزية في طبعته التي حققها الشيخان شعيب وعبد القادر الأرنؤوط وصنع فهارسها الأستاذ محمد أديب الجادر .

* * *

والقراءة المتأملة للسيرة النبوية توقفك كلما كررتها على جديد من المعاني لم يخطر لك على بال في قراءة سابقة. وأنا لذلك أدعو الذين يحبون القراءة، ويصبرون عليها، أن يجعلوا نصيبًا من قراءتهم لمعاودة النظر في السيرة النبوية حينًا بعد حين. وأنا زعيم لهم أن يجدوا في ذلك من المتعة وتجدد المعرفة مالا يجدونه في قراءة سواها من تواريخ الأمم وتراجم العظماء.

* * *

وهذه الفصول التي أقدمها للقارئ عن «الحديبية» هي ثمرة تلك القراءات العديدة، والمعايشة المتكررة، ثم هي ثمرة الكتابة لصحيفة «الخليج» الإماراتية في رمضان ١٤٢٣هـ ـ نوفمبر/ ديسمبر ٢٠٠٢م. وقد نشر منها في «الخليج» أربعة عشر فصلاً أولها «شوق ورؤيا صادقة» وآخرها «أعظم فتح». ولم ينشر ـ لسبب لا أعلمه! ـ الفصل الذي عنوانه: «مشورة امرأة أنقذت الصحابة». وكتبت الفصول الأخرى: «اختفاء الشجرة» و«معاهدة شارعة» و«حديث الوحي» لتنشر في هذا الكتاب قاصدًا أن تكتمل بها قصة الحديبية فصولاً وعبرًا.

* * *